الصور والمرايا
في تراث النورسي الفكري والوجداني

أديب إبراهيم الدباغ

- 1 -

بين المرايا وصور الحسن والجمال شيءٌ من الجذب والانجذاب، ونوع فريد من الودّ والانعطاف، وقد يزيد هذا الودّ أحياناً فيغدو حباً، وربما تَعَاظَمَ الحب فصار هياماً وعشقاً... !

فالجميل يتوق أبداً إلى رؤية جماله على صفحات المرايا وفي عيون الآخرين –كما يقول النورسي– والمرايا من جهتها تتوق أبداً إلى أن تكون موضع نظر الجمال، ومجلى آياته ومَحَطَّ محاسنه.

فعشق المرايا للجمال تحدثت عنه أساطير الشعوب منذ قديم الأزمان، ونسجت حوله حكايات ترمز إلى هذا العشق وتومئُ إليه. فروح الجمال – كما تعكسه هذه الحكايات الأسطورية إذا ما مسَّ شيئاً، أو حوّم فوق شيء، أيقظ مواته وهزّ أعطافه، وحرك مشاعره، مهما بدا هذا الشيء– في ظاهر الأمر– فاقداً لأهلية الحسّ والشعور.

فالكون الذي يتقطّر نور الجمال من كل أرجائه إنْ هو إلاّ صور ومرايا، صور تواقة إلى مراياها، وبالمقابل مرايا تواقة إلى صورها، وهذا التوق أو الشوق المتبادل بين الصور والمرايا دائمٌ بدوام الكون لا يتوقف طرفة عين، وهو الذي يجعل الكون موّاجاً بالحركة والحياة والتجديد، فلا يهرم و لا يموت حتّى يشاء الله تعالى..!

- 2 -

وقد تكون الصور مرايا لغيرها في الوقت عينه، والمرايا تنقلب إلى صور تبحث عن مراياها في غيرها، ففي الحركة الفلكية الكونية يصبح الزمن مرآةً للكون، يرى فيه نفسه، ويتلمس تاريخ حياته، وتطور خلقه، وتَتَابُعَ نشوئه، ويغدو الكون مرآة لكرتنا الأرضية، ترى فيه صورتها، وتتحسّسُ في غوره جذور وجودها، وبذرة حياتها، ثم تصبح الأرض مرآة للتاريخ، يرى فيها ملاحم حياته، ومُضْطَرَبَ أيامه، ومُتَقَلّبَ شؤونه، والتاريخ يعود للبشرية مرآة ترى فيه صور نشوئها وارتقائها، وتطور عقلها وفكرها، والبشرية في ذات الوقت تصير مرآة للإنسان يرى فيها نفسه منطويةً في نفسها، ووجوده منطوياً في وجودها، وعقله غائصاً في عقلها، وروحه غائراً في روحها، والإنسان كذلك يظلُّ مرآة لأخيه الإنسان، يرى فيه صورته كما هي في ضعفها وقوتها، وسمُّوها وحِطّتها، وجمالها وقبحها، وبكل ما فيها من نقائض وأضداد، إلاَّ أنّ قلب الإنسان يبقى أعظم مرايا العالم، وأكثرها سعةً، وأشّفَها شفافيةً، وأنقاها صفاءً، وهو أشرف ما في الإنسان، وأقدس ما فيه من قداسات، لذلك صار موضع نظر الله تعالى من الإنسان، ومهبط أنواره وتجلياته، ومستودَع إلهاماته، وخزين غيوبه، ووعاء وحيه وخطابه..

- 3 -

وإذا ما فار تنور العشق في بعض المرايا واستعرت نيران محبتها، والتهبت أشواقها، تاهت اختبالاً، وهامت شوقاً، وذابت وَجْداً، وتلاشى الوجود، ولم يبقَ غير المعبود. وطغى الخيال فطال المحال، واختلط الوهم بالصواب، فصارت ترى أن الذي على صفحتها من أنوار المحبوب إنما هو المحبوب ذاته، وأنه قد حلَّ فيها واتحد بها، وتوحد معها، فباتت هي والمحبوب واحداً، فلا ثمة "أنا" ولا ثمة "هو".

وفي مثل هذا الوهم القاتل والزعم الباطل ما أكثر ما تَصَدّعَتْ مرايا وتكسّرت وتطايرت شظايا محترقة في الفضاء مثلها مثل المنْبَتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وصدق ﷺ القائل: (إنّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإنّ المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) ومما يغري بعض المرايا بأمثال هذه المزاعم، ويرديها بأمثال هذه المهاوي، ظنّها بتلاشي الأبعاد والأمداء بينها وبين المحبوب لأقربية أنواره منها، بينما أقربية النور من شيء ما، لا يعني بالضرورة أقربية صاحب النور -كما يقول النورسي – فنور الشمس مثلاً يغمر الموجودات التي فوق سطح الأرض جميعاً من البحار والأنهار، والأزهار والأشجار، والصخور والأحجار، رغم أنّ الشمس نفسها – صاحبة النور – بعيدة بعداً مهولاً عن كل هذه الأشياء، فتوهّم أقربية الشمس بذاتها وليس بنورها خطأ شنيع، ووهمٌ فظيع.

فسفر المرايا – وأعني بها هنا قلوب العباد – إلى نور النور والربّ المعبود، ليس فيه حركة كما يقول الغزالي: " لا من جانب المسافِر ولا من جانب المسافَر إليه، فإنهما معاً، أوَ ما سمعت قوله تعالى وهو أصدق القائلين: (**ونحن أقرب أليه من حبل الوريد**)، بل مَثل الطالب والمطلوب مثل صورة حاضرة مع ، مرآة ولكن ليست تتجلّى في المرآة لصدأ في وجه المرآة، فمتى صقلتها تجلت فيه الصورة لا بارتحال الصورة إلى المرآة، ولا بحركة المرآة إلى الصورة ولكن بزوال الحجاب، فإن الله تعالى متجلٍ بذاته لا يختفي إذْ يستحيل اختفاء النور وبالنور يظهر كُلُّ خفاء والله نور السموات والأرض" إلى أن يقول: " فما عليك إلاّ أن تنقي عن عين القلب كدورته، وتقوي حدقته، فإذا هو فيه كالصورة في المرآة، حتى إذا غاصّكَ في تجليه بادرتَ وقلتَ إنه فيه، وقد تدّرع باللاهوت ناسوتي، إلى أن يثبتك الله بالقول الثابت فتعرف أنّ الصورة ليست في المرآة بل تجلّتْ لها، ولو حلّتْ في مرآة ارتحلتْ عن غيرها وهيهات فإنه يتجلى لجملة من العارفين دفعةً واحدة، نعم يتجلّى في بعض المرايا أصح وأظهر وأقوم وأوضح، وفي بعضها أخفى وأميل إلى الاعوجاج عن الاستقامة، وذلك بحسب صفاء المرآة وصقالتها وصحة استدارتها واستقامة بسط وجهها. فلذلك قال ﷺ: (إنّ الله تعالى يتجلّى للناس عامّة ولأبي بكر خاصة) [1] و" الأقربية الإلهية" هنا إنما تعني أقربيته تعالى بعلمه المحيط الشامل المطلق بخلقه ومصنوعاته، -كما قاله المفسرون- غير أنّ الأمر سيَّان عند الغزالي ومن بعده "النورسي" لأنّ العلم نور كذلك، والنور جمال، والجمال يسعى إلى مرآة يرى فيها جماله ويريه للناظرين، فأسماؤه الحسنى وصفاته العليا إنْ هي إلا أنوار جماله تعالى المتجلية على الخلائق بها يحيون، وبها يعلمون، وبها يُرْزَقون، وبها يتراحمون، وبها يسعون في مناكب الأرض، وبها يَعْلَونَ في الفضاء ويغوصون في البحار، وبها يَعْمُرُوْنَ أرضهم ويقيمون دولهم، وينشؤون حضاراتهم.

---

1 الغزالي – جواهر القرآن ص 12 _ 13 الطبعة الثالثة– منشورات دار الآفاق – بيروت 1978م.

وفي تشكيله للوجدان الديني المرهف نرى "النورسي" يخوض في مسائل إيمانية عالية المرتقى، ويرتفع ليلمس سماوات من المعاني المحجوبة خلف ضباب الفكر وغبش الوجدان.

ولكي يرتفع بقارئه إلى تلك الآفاق الذهنية والوجدانية الضاربة في العلو يجد نفسه مضطراً إلى ضرب الأمثال والاستعانة بها في تقريب أفكاره إلى الآخرين. والإفادة من إضاءاتها في الكشف عن جوانب مهمة من أسرار الألوهية والربوبية، ومغزى الأقربية، وقدسية الأسماء الحسنى وتأثيراتها في الكون والحياة والإنسان, وصنعها في الخلق والإيجاد، وانعكاساتها على الأبدية والخلود، وتفسير معاني القيومية، واستمرارية المحو والإثبات، والسلب والإيجاب، وغيرها من قضايا الإيمان المحتاجة إلى المزيد من الكشف ورفع الأستار، والمزيد من الفهم والعلم، والرجوع من كلّ ذلك بحصيلة من المعرفة الإيمانية الحصينة المستقرة ليلتقي عليها "طلاب النور" ويلوذوا بها من الشتات الذهني والروحي.

ومن اكثر هذه الأمثال التي استعان بها "النورسي" في رسائله لهذا الغرض هو "مثال الصورة والمرآة" فأسعفه كثيراً وساعده على إضاءة كمٍ كبير من الغوامض والإشكالات التي تراود عقول المسلمين عامةً وعقول طلابه بخاصة.

- 4 -

و "النورسي" يرى: " أنَّ كلاًّ منا إنما هو مرآة كبيرة واسعة" [2] قابلة لاستقبال الصور التي يبثها الكون والحياة من حولنا وإننا لننفعل بما تنقله إلينا هذه الصور من رسائل، ونسعى إلى فهمها، والكشف عمَّا ترمز إليه من المعاني والأفكار، وعمّا تنطوي عليه من أسرار الحسن والجمال.

ومن حيث كوننا مرايا يظلُّ الواحد مِنَّا يتلقى طوال حياته سيولاً هائلةً متتابعة لا تتوقف من الصور، وتزدحم بها ذاكرته، ويتخم بها عقله.

والشأن مع "المجردات" هو الشأن نفسه مع المجسمات. فلكي يسهل علينا التعامل مع هذه "المجردات" فإننا نتوهمها صوراً قائمة إزاءنا نبادلها الحديث والرأي، ونتخيلها أشكالاً جسمانية نفهم عنها وتفهم عنّا.

فالتشكيل والتجسيم هما مطية "المجردات" إلى عقولنا ومن دونها يغشانا ضباب فكري يمنعنا من إدراك حقيقة ما يُرادُ مِنّا إدراكه، وحتى الأرواح التي لا شيء فوقها في التجريد لم يتركها خالقُها جلَّ شأنه تسبح في ملكوت التجريد، بل أمرها بالإيواء إلى أعشاش الأجساد، وهي إذا ما فارقت هذه الأجساد عند موتها لا تبقى متجردة من أي ثوب، بل ترتدي ثوباً جسمانياً مثالياً شبيها بالجسد الذي فارقته كما يقول "النورسي". [3]

---

2 النورسي _ المكتوبات ص 13

3 يقول النورسي:" نعم. انه بديهي أن كل روح رغم التبدل والتغير الجاري على الجسم عبر سني العمر تظل باقية بعينها دون أن تتأثر، لذا فما دام الجسد يزول ويستحدث – مع ثبات الروح – فلابدّ أن الروح حتى عند انسلاخها بالموت إنسلاخاً تاماً، وزوال الجسد كلّه، لا يتأثر بقاؤها ولا تتغير ماهيتها.. أي أنها باقية ثابتة رغم هذه التغيرات الجسدية، وكل ما هنالك أن الجسد يبدّل أزياءه تدريجياً طوال حياته مع بقاء الروح، أما عند الموت فيجرد نهائياً وتثبت الروح. فبالحدس القطعي بل بالمشاهدة نرى ان الجسد قائم بالروح، أي ليست الروح قائمة بالجسد، وإنما الروح قائمة ومسيطرة بنفسها. ومن ثم فتفرّق الجسد وتبعثره بأي شكل من الأشكال وتجمّعه لا يضر باستقلالية الروح ولا يخل بها أصلاً. فالجسد عشّ الروح ومسكنها وليس بردائها. وإنما رداء الروح غلاف لطيف وبدن مثالي ثابت إلى حدٍّ ما ومتناسب بلطافته معها. لذا لا

وعلى ضوء هذا الذي ذكرناه آنفاً، فإن المعاني والأفكار تظلُّ سابحةً في أجواء "التجريد" حتى تلتقي ما يناسبها من الهياكل الصورية والبيانية فترتديها وتتشخص فيها، وعلى ضوء هذا كذلك نفهم الحكمة في تمثل جبريل عليه السلام في صورة الصحابي"دحية" عند التقائه رسول الله ﷺ، وندرك لماذا تمثل بشراً سوياً لمريم عليها السلام، والإشارة في "البراق" الذي امتطاه رسولنا الكريم في إسرائه، والرمز في قدحَي اللبن والخمر المقدّمين له، والإيماء المقصود في شق الصدر، وقول السماء والأرض: (**أتينا طائعين**) عندما ناداهما ربُّ العزّة : (**إئتيا طوعاً أو كرهاً**) وحنين الجذع الذي كان يخطب إليه ﷺ، والسماء والأرض لماذا وكيف تبكيان لموت الصالحين، والصلاة غير المستوفية للشروط كيف تُطوى وتُرمى في وجه صاحبها وهي تقول: (ضيّعك الله مثلما ضيعتني) واشتياق الجنة إلى أوليائها وهم بعدُ في الارض، واشتياق النار إلى أهلها وهم بعدُ أحياء يرزقون.. إلى غير ذلك من المعاني المتشكلة صوراً وأمثالاً، يزخر بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. واختلاف المرايا – في صقالتها واستدارتها ونقائها وتوجهها – بين إنسان وآخر هو الذي يحدد قدرات هذه المرايا على استقبال نوعيات الصور وكيفياتها ودرجات علوها أو هبوطها في سلم الملكوتات العقلية والوجدانية، وهو الذي يسبب اختلاف التشكلات النفسية من حيث الجدب أو الخصب بين إنسان وآخر، لذا صار " لكل منا دنياه الخاصة من هذه الدنيا العمومية ولكل منا عالمه الخاص به" كما يقول النورسي [4] حتى كأن كل إنسان جزيرة مستقلة بذاتها في محيط بشري متلاطم الموج.

ولضعفٍ في قوة الأبصار، وَصَدأٍ مُزْمِنٍ في المرآة، وكلالٍ في الذهن على استبانه حقائق الأشياء، يتلقى الإنسان المنكود الصور الهابطة عليه من سماء الحق مشوشةً ومشوهةً لا يتبين حقيقتها ولا يدرك رمزها، لأنه لم يكن في قلبه قبل ذلك حبٌّ لها ورغبة لها، واستشراف نحوها، ومن هنا تنشأ الانحرافات وتتجذر الكفريات، ويكبر الجحود، ويتفاقم الإنكار، وتصبح الماهية الإنسانية التي هي في الأصل "مرآة جامعة للأسماء الإلهية الحسنى كلها" [5] عدسةً مُشَتتةً لهذه الأسماء وطامة لأنوارها وجلواتها في مرايا الموجودات

- 5 -

فالأسماء الإلهية الحسنى – الجلالية والجمالية – المتجلية بأنوارها على الموجودات تؤثر في كل موجود بحسب استعداداته الخلقية، وتحيله إلى طاقة حركية مؤثرة بالموجودات الأخرى المحيطة به فهو في انتقال دائم وصيرورة مستمرة من الأدنى إلى الأعلى حتى يستوي على عرش الكمال الذي ينشده ويندفع إليه كُلُّ موجود سليقةً وفطرةً، والماهية الإنسانية هي الأخرى ومن حيث كونها جامعة للأسماء الإلهية الحسنى فإنها في تجدد مستمر وسعي حثيث للارتقاء بالنفس نحو الكمال الإيماني، والارتقاء بها نحو الرضى الرحماني الذي هو بغية كل مؤمن صادق الإيمان.

تتعرّى الروح تماماً حتى في حالة الموت بل تخرج من عشّها لابسة بدنها المثالي وأرديتها الخاصة بها." الكلمات ص 610

4 المكتوبات ص 13

5 المكتوبات ص 50

فالأسماء الإلهية لا بد لها من الظهور بجمالها" أي تستدعي إظهار نقوشها، أي تقتضي مشاهدة تجليات جمالها في مرايا نقوشها وإشهادها. بمعنى أن تلك الأسماء تقضى بتجدد كتاب الكون، أي تجدد الموجودات آناً فآناً، باستمرار دون توقف، أي أن تلك الأسماء تقتضي كتابة الموجودات مجدداً وببلاغة حكيمة ومغزى دقيق بحيث يظهر كل مكتوب نفسه أمام نظر الخالق جل وعلا وأمام أنظار المطالعين من الموجودات المالكة للشعور ويدفعهم لقراءته".[6]

وحتى تنتقش هذه الأسماء القدسية على مرآة القلب، وتتوحد في إسمه تعالى [الواحد، الأحد] لكي يتم ذلك، ويبلغ "التوحيد" الذي هو أساس الإيمان والإسلام عند المؤمن درجة الكمال المطلوب، عليه أنْ يتوحد هو نفسه أولاً وأنْ يُوَحِدَ ذاته، وَيَلُمَّ شتاته، ويجمع ما تفرق من أجزائه وما غاب من عقله ووجدانه، وما غام من فطرته، ليغدو بذلك واحداً كُلاً متكاملاً لا شئ فيه يبيت خارج كله، فيكون مؤهلاً لشرف العبودية للواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، حيث تصبح كُلُّ حياته لله إذا كان حياً، وَكُلُّ مماته لله إذا هو مات، فلا يبقى منه أية بقايا في الدنيا خارج قبره. مثله مثل ذلك الصحابي الجليل الذي ذُكِرَ عند رسول الله ﷺ فترحم عليه قائلاً: (رحم الله فلاناً فقد مات كله!) قالوا – أي الصحابة – : [أليس أحدنا إذا مات يموت كله..؟! قال: ليس كلكم إذا مات يموت كله) أو كما هو قوله عليه الصلاة والسلام والى هذا الإشارة في قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (**قل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين**) 163/ الأنعام

وكوننا أحياء نتنفس الحياة ونحياها لا يعني هذا أنّ عمق هذه الحياة ودرجة عنفوانها واحدة عند جميع بني البشر، فهناك تفاوت قليل أو كثير في المدى الذي تذهب إليه هذه الحياة من ذواتنا، ومن قدرتها على إغناء وجودنا بالبواعث الحافزة للداينمية الحياتية في دواخلنا، فكم من إنسان يغدو أمامنا ويروح وهو في مقاييس الإيمان جثة هامدة تمشي على رجلين كما يقول "النورسي" لضعف استجابته لدواعي الحياة الإيمانية، ولصممه عن نداء الحق: (**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**) وكم من مُتوارٍ وراء ستار الحياة وهو عند ربه حي يرزق (**فلا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**).

وكما أن التفاوت في درجة الحياة وسعتها وعنفوانها موجود بين إنسان وآخر، فإن هذا التفاوت نفسه موجود كذلك بين مكونات الماهية الإنسانية، فحياة العقل عند البعض قد لا تكون على المستوى نفسه من حياة القلب، وحياة الجسم بعظمه وعصبه ولحمه ودمه قد تكون في الدرجة دون حياة الروح، والعكس صحيح أيضاً، وقد تموت النفس برعوناتها وشهواتها وحسّياتها بينما يظل الروح في أعلى درجات الحياة، والأمر نفسه ممكن بين جميع لطائف الماهية الإنسانية التي تتجاذبها على الدوام دواعي الموت والحياة. ومن هنا جاء الاختلاف في النفوس والعقول والأمزجة والسلوك بين بني البشر. فظاهرة الموت والحياة وتعاقبهما المشهودة أمامنا والمكرورة على مدى الدهور والأزمان، تشير إلى حي هو فوق الموت والحياة، بل هو خالق الموت والحياة. وبيده زمامهما، وبأمره يتعاقبان، وبعلمه يعملان ولأرادته يمتثلان، وفي هذا الصدد يقول "النورسي": " كما أن الحياة التي تُظهر تجلي

6 المكتوبات ص 109 – 110

الجمال الرباني هي برهان الأحدية، بل هي نوع من تجلي الوحدة، فالموت الذي يُظهر تجلي الجلال الإلهي هو الآخر برهان الواحدية.

فمثلاً: إن الفقاعات والزبد والحباب المواجهة للشمس، والتي تنساب متألقة على سطح نهرٍ عظيم، والمواد الشفافة المتلمعة على سطح الأرض، شواهدٌ على وجود تلك الشمس، وذلك بإراءتها صورة الشمس وعكسها لضوئها. فدوامُ تجلي الشمس ببهاء مع غروب تلك القطرات وزوال لمعان المواد، واستمرار ذلك التجلي دون نقص على القطرات والمواد الشفافة المقبلة مجدداً، لهي شهادة قاطعة على ان تلك الشُميسات المثالية، وتلك الأضواء المنعكسة، وتلك الأنوار المشاهدة التي تنطفئ وتضيء وتتغير وتتبدل متجدّدةً، إنما هي تجليات شمسٍ باقية، دائمةٍ، عالية، واحدةٍ لا زوال لها. فتلك القطرات اللماعة إذن بظهورها ومجيئها تدل على وجود الشمس وعلى دوامها ووحدتها.

وعلى غرار هذا المثال (ولله المثل الأعلى) نجد أن:

هذه الموجودات السيالة إذ تشهد بوجودها وحياتها على وجوب وجود الخالق سبحانه وتعالى، وعلى أحديته فإنها تشهد بزوالها وموتها أيضاً على وجود الخالق سبحانه وعلى أزليته وسرمديته وأحديته. نعم، إن تجدد المصنوعات الجميلة وتبدّل المخلوقات اللطيفة، ضمن الغروب والشروق وباختلاف الليل والنهار، وبتحول الشتاء والصيف، وتبدل العصور والدهور، كما أنها تشهد على وجود ذي جمال سرمدي رفيع الدرجات دائم التجلي، وعلى بقائه سبحانه ووحدته، فان موت تلك المصنوعات وزوالها – بأسبابها الظاهرة – يبيّن تفاهة تلك الأسباب وعجزها، وكونها ستاراً وحجاباً ليس إلاّ.. فيثُبت لنا هذا الوضع – إثباتاً قاطعاً – أن هذه الخِلقة والصَنعة، وهذه النقوش والتجليات إنما هي مصنوعاتٌ ومخلوقاتٌ متجددةٌ للخالق جل جلاله الذي جميع أسمائه حُسنى مقدّسة، بل هي نقوشه المتحولة، ومراياه المتحركة وآياته المتعاقبة، وأختامه المتبدلة بحكمة".[7]

- 6 -

إنَّ ذكاءً متعباً منهوكاً قد أنهكته اللذات، وأطفأت جذوته أدخنة الشهوات، وإنّ قلباً مثقلاً بالهابط المبتذل من الدنيويات، ومزدحماً بشتى صور الحسيّات، لا جرم يغدو غير قادر على تملي صور الجمال، بل تصبح هذه الصور مصدر عذاب له، وحافزَ إثارة لكوامن القلق والأسى في روحه، فيودّ لو يخفي نفسه تحت كثيب من الرمل – كما تفعل النعامة – هرباً من مسؤولية الرؤية والمعرفة وثقل الأمانة المناطة بها..! ولكن هيهات فهذه الصور لا تنفك عن ملاحقته ومحاصرته والبحث عن كوة مهما كانت ضيقة لتنفذ منها إلى دواخله، وتضيء ولو قبسة ضئيلة من نور في ظلامه الحالك، وهذه القبسة هي "التوبة" المطلوبة والمؤمَّلة من كل الناكبين عن طريق الهداية، والمغمضين أعينهم عن مرايا الجمال الإلهي وكماله، وهذه المرايا هي المصنوعات التي تمتلئ بها السموات والأرض، حتى لتكاد تنحصر وظيفة هذه المصنوعات في كونها مرايا تعكس للناظر أنوار الجمال الإلهي المقدس، وأنوار كماله.

يجيب "النورسي" وكأنه قد سئل عن الغاية من الخلق والصنع الإلهيين – قائلاً: " إن أهم غاية للمصنوع هي النظر إلى صانعه الجليل، أي يعرض المصنوع كمالات صنعة صانعه، ونقوش أسمائه

7 الكلمات ص 341–342

الحسنى ومرصعات حكمته القيمة وهدايا رحمته الواسعة أمام نظره سبحانه ويكون مرآة لجماله وكماله جل وعلا. هكذا فهمت هذه الغاية" .[8]

فمنْ بين العلم المطلق والقدرة المطلقة ينهض المخلوق قائماً سويَّ الخلقة، يطل على الوجود نافضاً عنه بقايا عتمة من الرحم الكونية التي كان في حضانتها. فلا يلبث هذا المخلوق أن يأخذ مكانه شيئاً بين الأشياء، وصورةً بين الصور، أو مرآةً بين المرايا، ويبدأ على الفور بممارسة وظيفته الرسالية بين أن يكون صورة تبحث عن مرآة تتجلى عليها، أو مرآة تبحث عن صورة تتأمل جمالها، وهي في الحالين لا تعدو عن كونها شارةً أو رمزاً إلى خالق الصور والمرايا. وواهب الأسماء والسِمَات، ومُقَدّر الوظائف والأعمال لمخلوقاته ومصنوعاته.

وسطحي النظر يرى شارات العلم وسماته على المخلوق اكثر ظهوراً وأشدّ وضوحاً، من آيات القدرة وعلاماتها، فالقدرة لا تزال مرتبطة في أذهان الناس بالخوارق والمعجزات والكرامات، وبما هو غير عادي ولا مألوف عموماً، لذلك لا يتعمق الإنسان في المألوفات في بحثه عن دلائل القدرة، فالمألوفات التي يألفها الإنسان ويتعايش معها لا تثير اهتمامه عادةً لأنه يتوهم معرفته بها، فليس كل مألوف معروفاً أو معلوماً كما يقول "النورسي"[9] فقد يألف الإنسان أشياء كثيرة طوال حياته ثم يموت وهو لا يعرف من مكنوناتها شيئاً ذا بال فمرايا القدرة لا تعد ولا تحصى، فهي في المألوفات كما هي في الخوارق والمعجزات، وهي في الماء والهواء كما هي في الغيبيات، وهي في الهوية كما هي الماهية، والنورسي يشير إلى هذه الحقيقة قائلاً: " إن للقدرة مرايا كثيرة جداً، كل منها أشفّ وألطف من الأخرى. وهي تتنوع، من الماء إلى الهواء، ومنه إلى الأثير، ومنه إلى عالم المثال، ومنه إلى عالم الأرواح بل إلى الزمان وإلى الفكر.

ففي مرآة الهواء تصبح الكلمة الواحدة ملايين الكلمات. فإن قلم القدرة يستنسخ سرّ هذا التناسل بشكل عجيب. إن الانعكاس إما يحوي الهوية أو يحوي الهوية مع الماهية. إن تماثيل المادة – أي صورها – الكثيفة عبارة عن أموات متحركة، أما تماثيل الأرواح النورانية في مراياها فحيّة مرتبطة بالحياة، إن لم تكن عينُها فليست غيرَها." [10]

"فالهوية" إنما هي علْمٌ وإعلام وإشارة ورمز وسِمَات، أما الماهية فسرّ وإسرار وإرادة وقدرة وأمر..!

أو إنْ شئتَ قلتَ: الهوية صدف والماهية جوهرة هذا الصدف..!

أو إنْ شئتَ قلتَ: الهوية من فيض تجليات اسمه تعالى "الظاهر" أما الماهية فمن فيض تجليات اسمه تعالى "الباطن"..!

فالمرآيا إما أن تعكس صور الهوية وحدها وتترك للناظرين مهمة الكشف عن ماهياتها، أو تعكس الهوية والماهية معاً وتترك لخوراق أبصار الناظرين مهمة الغوص في دواخل الماهية. فالعلم في أبسط

---

8 المكتوبات ص 371

9 "اعلم ! إن اكثر معلومات البشر الأرضية ومسلّماته، بل بديهياته مبنية على الألفة، وهي مفروشة على الجهل المركب. ففي الأساس فسادٌ أيّ فساد. فلهذا السر توجِّه الآياتُ أنظارَ البشر إلى العاديات المألوفة، وتثقب نجوم القرآن حجاب الألفة ويأخذ بأذن البشر ويميل رأسه، ويريه ما تحت الألفة من خوارق العادات في عين العاديات ". المثنوي العربي النوري – ص: 324

10 المكتوبات – نوى الحقائق ص 603

تعريف له: إنما هو عملية للبحث عن ماهيات الأشياء عبر هوياتها، سواء كانت هذه الأشياء مجسمات أم مجردات.. أي سواء كان منبعها الحسّ أو كان منبعها الشعور، أو سواء كانت مما يندرج تحت "علم العقول" أو "علم القلوب"، وكلا العلمين لا غنى لأحدهما عن الآخر، لأنه لا غنى – في الحقيقة – للقلب عن العقل، ولا للعقل عن القلب، وإلاّ اختلت الموازنة، واضطربت المعادلة. وسقط الإنسان صريع طغيان أحدهما على الآخر. و"النورسي" يشير إلى هذا في شرحه لمنهجه في تأليف كتابه "المثنوي العربي النوري" حيث يقول: "سلكتُ طريقاً غير مسلوك، في برزخٍ بين العقل والقلب" [11] ويصف سلوكه هذا بأنه: " كان في سياحته وسلوكه ذلك السلوك في تلكً المقامات، ساعياً بالقلب تحت نظارة العقل، وبالعقل في حماية القلب كالإمام الغزالي والإمام الرباني وجلال الدين الرومي." [12] والفاصل القاطع بين ما هو عقلي وقلبي من معارف الإنسان، فاصل وهمي، وحدّ مفترض، نفترض وجوده حيث لا وجود له في الحقيقة، كافتراض الجغرافيين لخطوط الطول والعرض حول الكرة الأرضية بهدف تعيين المواقع، وبيان أماكن البلدان والأقطار والمدن من الأرض. فلا وجود لأمثال هذه الحدود والفواصل في النفس الإنسانية بين "العقلانيات" و "الوجدانيات" لأن "الروح" هو الذي يقدح زنادهما معاً، ويشعل جذوة ذكائهما معاً.

فالمعرفة العلمية هي معرفة روحية بمعنى من المعاني إذا ما رجعنا بها إلى باكورة بواعثها، والمعرفة القلبية هي انعكاسات روحية في بواعثها الأولى. فالعقل والقلب يظلان هامدين خامدين مظلمين ما لم يشرق في سمائهما نور عظيم من روح عظيم : (**ومَنْ لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**).

. 7 .

والعارف لانفتاح منافذ الروح منه قد يرى من الخفايا ما لا نرى، ويسمع من الهواتف مالا نسمع، ويحسُّ من غرائب الوجود ما لا نحسّ وينعكس على مرآة قلبه من صور الخواطر والإلهامات مالا ينعكس على مرايا قلوبنا.

وجدير بمَنْ هذا شأنه أن يدرك أبعدَ الحقائق منَازِلَ، وأكثفها حجباً، وأقصاها انتباذاً، وأن ينظر أعمق مما ينظر التاريخ، وأوسع مما تنظر إليه جغرافية الأرض والسماء. وأنفذ عمقاً ممّا تنفذ إليه مسابير الخلائق، ومن باب التذكير أقول: إنّ من الخطأ اعتبار ما لا تراه العيون، وتسمعه الآذان، وتحسّه الأبدان، ويشعر به الوجدان غيباً من الغيوب المستأثر بعلمها علاّم الغيوب وحده جلَّ شأنه، فهي ليست غيوباً – بالمصطلح الشرعي – وإنما هي جواهر نفيسة ولآلئ ودّرر ثمينة، صينت بهذه الحجب والستور. وأُغلِقتْ من دونها أبواب الخدور، حفظاً لها وغيرةً عليها من الابتذال والوقوع بيد منْ لا يفرق بين الدّر والحجر، ويستوي عنده التبر والتراب، حتى إذا طالها مَنْ يتعب فيها. ويجهدْ من أجلها، ويسعى مشوقاً إليها، ويبذل روحه مهراً لها، كشفت له عن نفسها الستور. ومزّقت من دونه الخدور، وزال المحذور، وقالت: ها أناذي فدونك إياي، خذني مني إليك، واجمعني عليك، وضمني إلى مناجم معارفك، فأنت بي جدير وعلى مهري قدير.

11 المثنوي العربي النوري ص 35

12 نفس الصدر ص 31

والعارف روح هائم ينتقل بين مختلف العوالم وذلك بحسب ما يعتريه من أحوال، وما يتجاذبه من جواذب هذا العالم أو ذاك. ففي الوقت الذي يبدو فيه وكأنه إنسان عادي في واقعه الذي يساكنه إذا به فجأةً وبدون سابق علم وبخطوة واحدة يكون في عالم المثال الزخّار بأرواح صور الموجودات وبمعانيها ورموزها ودلالاتها، " إذْ ما من شيئ في عالم الملك والشهادة إلا وهو مثال لأمر روحاني من عالم الملكوت كأنه هو في روحه ومعناه، وليس هو هو في صورته وقالبه" [13]كما يقول الغزالي، وحيث يصغي إلى أصداء ما يحتدم على الأرض من أحدث، وما ينشأ فيها من صراع الإرادات.
فعالم المثال عالم وسط بين عالمي الملك والملكوت، أو هو كسور الأعراف ظاهره رؤى وخيالات، وباطنه حقائق ووقائع، وقد تختلط في روح العارف هذه الرؤى بتلك الحقائق، فإذا أراد أن يخبر عنها قال كلاماً نصفه حق ونصفه الآخر خيال ورؤى. فيبدو وكأنه يتجنّى على الحقائق، ويجانب المشاهد والمحسوس في عالم الواقع.
فرؤيا العارف قد تكون بحد ذاتها صادقة وحق إلا أنها تحتاج إلى المعبر الذي يحسن تعبيرها، ويخطئ العارف إذا ما حاول هو أن يعبر رؤياه بنفسه " فانظروا إلى ما ينكشف للنائم في نومه من الرؤيا الصحيحة التي هي جزء من أربعين جزءً من النبوة، وكيف ينكشف بأمثلة خيالية: فمن يعلّم الحكمة غير أهلها يرى في المنام أنه يعلق الدرر على الخنازير..." [14]
فكما أنّ رائي الرؤيا يعجز عن تعبير رؤياه بنفسه فيلجأ إلى معبرّ يكشف له عن مغزاها ومعناها والرمز الذي ترمز إليه، فكذلك العارف يخطئ حين يضاهي ما رآه في عالم المثال على شاكلته من عالم الواقع، وأكثر الأخطاء المروية عن بعض العارفين، والأقوال والأحكام المنسوبة إليهم والتي يبدو أنها مجانبة لحقائق عالم الشهادة المعروفة والملموسة. منشؤها مزج رؤاهم في عالم المثال بأشباهها من عالم الواقع دون اعتبار لاختلافهما من حيث السَعَة والامتداد في عالم المثال قبالة الضيق والانكفاء في عالم الشهادة، فتحدث لذلك المفارقة، وتنشأ المناقضة. والنورسي يقرب لنا هذا المعنى بمثال مبيناً أسباب الخطأ الذي يقع فيه بعض العارفين، فيقول:

" هب أن لك غرفة ضيقة، وضعت في جدرانها الأربعة مرايا كبيرة، تغطي كل مرآة الجدار كله، فعندما تدخل غرفتك ترى ان الغرفة الضيقة قد اتسعت وأصبحت كالساحة الفسيحة، فإذا قلت: إنني أرى غرفتي كساحة واسعة.. فانك لا شك صادق في قولك.

ولكن إذا حكمت وقلت: غرفتي واسعة سعة الساحة فعلاً.. فقد أخطأت في حكمك، لأنك قد مزجت عالم المثال – وهو هنا عالم المرايا – بعالم الواقع والحقيقة، وهو هنا عالم غرفتك كما هي فعلاً." ويخلص النورسي إلى القول بـ : " أن درجة الشهود أوطأ بكثير من درجة الإيمان بالغيب. أي أن الكشفيات التي لا ضوابط لها لقسم من الأولياء المستندين إلى شهودهم فقط، لا تبلغ أحكام الأصفياء والمحققين من ورثة الأنبياء الذين لا يستندون إلى الشهود بل إلى القرآن والوحي، فيصدرون أحكامهم حول الحقائق الإيمانية السديدة. فهي حقائق غيبية الا انها صافية لا شائبة فيها. وهي محددة بضوابط، وموزونة بموازين.

---

13 الغزالي / جواهر القرآن ص 28 دار الآفاق الجديدة/ بيروت/ 1978/ الطبعة الثالثة
14 المصدر نفسه ص29

اذن فميزان جميع الأحوال الروحية والكشفيات والأذواق والمشاهدات إنما هو: دساتير الكتاب والسنة السامية، وقوانين الأصفياء والمحققين الحدسية".[15]

.8.

والارتقاء إلى عالم "المثال" بين الحين والآخر لا يتأتّى إلاّ للأرواح الطاهرة العفيفة في الجسم الطاهر العفيف، وآية هذه الأرواح قدرتها على استبانة ما ينعكس على مرآة عالم "المثال" من رموز وإيماءات إلى حقائق الأشياء ولبابها، وببصيرتها النافذة تخترق خفاياه وبواطنه، فأما أنْ ترى ما يُسرُّ ويبهج فيغشاها عند ذاك حال من الحبور والبسط والانشراح يملؤها سروراً وطرباً. وإلاّ ذاقتْ الكرب والحزن ولبست الشجى والألم، وهذا هو القبض الذي يغشى بعض الأرواح بين وقت وآخر، فأصداء الأحزان الآتية من بعيد أشدّ وقعاً في الأرواح من وقعها حين يحين وقت وقوعها، ولعلّ إلى هذا الإشارة في قوله ﷺ لصحبه الكرام رضوان الله عليهم(لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً)

وفي هذا الصوت المحمدي الحنون باعث حزن وشجى، يظلل أجواء الإيمان بغمامة من الحزن الشفيف العَذبْ رغم أساه، ويحذر المؤمنين من الوقوع في شَرك البسط الدائم الذي ربما أفضى إلى شيء من الغفلة القاتلة التي هلك فيها الكثير من الخلائق، أما الأرواح العظيمة من ذوات العزم فقلّما تسقط في هذا الشرك لأنها يقظة دائمة الفطنة، لا تسرف في بسطها، ولا تقنط إذا أسرفت (**قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم**).

وعندما سئل مرةً عليه الصلاة والسلام عن سنته قال من بين ما قال(والشوق مركبي، والحزن رفيقي..!) وأرجو الانتباه إلى "الحزن رفيقي" وإلى مَنْ هو قائل هذا القول، إنه حبيب رب العالمين، الذي أنزل على قلبه الشريف أشرف ما نزل على نبي من الأنبياء من قبله، وقائل هذا القول هو أجلى مرآة تعكس أسماء ربّه الحسنى. وذاته الشريفة هي نور تلك الأسماء المتجلية بأنوارها عليه.

يشير النورسي، إلى هذا فيقول: "إن الجميل ذا الجلال لمحبته جماله يحب محمداً ﷺ الذي هو اكمل مرآة ذات شعور لذلك الجمال.

وانه سبحانه لمحبته أسمائه يحب محمداً ﷺ الذي هو أجلى مرآة تعكس تلك الأسماء الحسنى" [16].

ويمضي فيقول في مكان آخر: " أم هل يمكن لصاحب جمال مطلق أن لا يروم أن يشهد هو ويُشهِد خلقه محاسن جماله ولطائف حسنه في مرايا تعكس هذا الجمال؟ أي بوساطة رسول حبيب؛ فهو حبيب لتودده إلى الله سبحانه بعبوديته الخالصة، وهو رسول حبيب لأنه يحبب الله سبحانه إلى الخلق بإظهار جمال أسمائه الحسنى." [17]

فذاته الشريفة ﷺ، مرآة استقبال عظمى لتجليات النور الإلهي الأقدس، ولأنوار أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وبدورها تعكس هذه الأنوار بروقاً وومضات على قلوب الآخرين، فالروح العظيم

---

15 المكتوبات ص103-105

16 المكتوبات ص 393

17 الكلمات ص 62

عندما يُبْعَثُ فلن يموت أثره في العالم أبداً، بل يصبح مصدراً نورانياً خالداً يضيء أرواح الأجيال جيلاً بعد جيل الى ان تقوم الساعة، فهو ﷺ رحمة مهداة للعالمين (**وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين**) للمؤمنين به ولغير المؤمنين كذلك،

أما المؤمنون فقد أدركوا وعرفوا وذاقوا ورضوا واطمأنوا، وأما غير المؤمنين من الملل الأخرى فقد أكلتْ نار الإسلام الكثير من حطب أوهامهم وظنونهم ومزاعمهم، وساقتهم إلى حافّات الحق الأولى حتى لم يبقَ بينهم وبين أن يعرفوه إلاّ خطوات قليلة إنْ يكونوا قد وقفوا عندها اليوم فقد يجتازوها في يوم ما كما قد اجتازها فعلاً بعض الأذكياء منهم على مدار الأيام.

- 9 -

فكلما داهم البشرية صقيع حضاري يجمّد نبض الروح، ويَئِدُ حياة القلب عادت مضطرةً لتستدفئ وتستضيء بالنور العظيم المنبعث من أرواح الأنبياء عليهم السلام، فتجد عندهم المأوى الدافئ الذي تؤي إليه، وتلوذ به، وتذيب في كنفهم ما تجمد من حياة الروح والوجدان، ولن ترى البشرية أعظم من روح محمد عليه الصلاة والسلام بين أرواح الأنبياء، ولا مأوى اليها أفخم من مأواه، ولا نوراً أشدّ ألقاً وأنفذ إلى مخ الروح وعصب القلب من نوره، فذاته الشريفة نور النور، لأنّ النور الأعظم والأقدس وهو (القرآن) قد تجوهر في هذه الذات، وصار جزءً لا يتجزأ منها، فَحُقَّ لعائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله أن تقول: (كان خلقه القرآن) فصار من أجل هذا الخَلقْ والخُلق القرآني حبيب ربّ العالمين، لأنّ لا أحد غيره استطاع أن يعكس جمالَ أنوار تجليات أسمائه الحسنى على مرايا القلوب كما فعل فأشعل بذلك في قلوب المؤمنين جذوة عشق تذيب الحشا وتقتات على الأفئدة. فالتفتَ إليهم ربُّ العزة، ونظر إليهم نظرة رحمة وإشفاق وخاطبهم على لسان رسوله: (**قل إنْ كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**) فرسولي هو البوابة التي من خلالها يصلني حبكم، فمحبته واتباعه والتعلق بسنته هو طريقكم الموصل اليَّ.

و "النورسي" يلقي المزيد من التفسير على هذه الآية الكريمة فيقول:

قال تعالى: (**قُلْ إنْ كُنتُم تُحبّون الله فاتّبعوني يُحْببكُم الله**) .

في هذه الآية الكريمة إيجاز معجز، حيث ان معاني كثيرة قد اندرجت في هذه الجمل الثلاث:

تقول الآية الكريمة: إن كنتم تؤمنون بالله، فإنكم تحبونه، فما دمتم تحبونه فستعملون وفق ما يحبه، وما ذاك إلا تشبهكم بمن يحبه.. وتشبهكم بمحبوبه ليس إلا في اتباعه، فمتى ما اتبعتموه يحبكم الله، ومن المعلوم أنكم تحبون الله كي يحبكم الله.

وهكذا فهذه الجمل ما هي إلا بعض المعاني المختصرة المجملة للآية، لذا يصح القول: إن أسمى مقصد للإنسان وأعلاه هو أن يكون أهلا لمحبة الله.. فنص هذه الآية يبين لنا أن طريق ذلك المقصد الأسنى إنما هو في اتباع حبيب الله والاقتداء بسنته المطهرة."

ويمضي النورسي يقول:

" لقد جُبل هذا الإنسان على محبة غير متناهية لخالق الكون، وذلك لان الفطرة البشرية تكنّ حباً للجمال، ووداً للكمال، وافتتاناً بالاحسان، وتتزايد تلك المحبة بحسب درجات الجمال والكمال

والإحسان حتى تصل إلى أقصى درجات العشق ومنتهاه.

نعم إن في القلب الصغير لهذا الإنسان الصغير يستقر عشق بكبر الكون. إذ إن نقل محتويات ما في مكتبة كبيرة من كتب، وخزنها في القوة الحافظة للقلب – وهي بحجم حبة عدس – يبين ان قلب الإنسان يمكنه ان يضم الكون ويستطيع ان يحمل حباً بقدر الكون.

فما دامت الفطرة البشرية تملك استعداداً غير محدود للمحبة تجاه الإحسان والجمال والكمال.. وان لخالق الكون جمالا مقدساً غير متناه، ثبوته متحقق بداهة بآثاره الظاهرة في الكائنات.. وان له كمالا قدسياً لا حدود له، ثبوته محقق ضرورة بنقوش صنعته الظاهرة في هذه الموجودات.. وان له إحسانا غير محدود ثابت الوجود يقينا، يمكن لمسه ومشاهدته ضمن إنعامه وآلائه الظاهرة في جميع أنواع الأحياء.. فلابد انه سبحانه يطلب محبة لا حد لها من الإنسان الذي هو اجمع ذوي الشعور صفة، وأكثرهم حاجة، وأعظمهم تفكراً، وأشدهم شوقاً إليه.

نعم، كما أن كل إنسان يملك استعدادا غير محدود من المحبة تجاه ذلك الخالق ذي الجلال، كذلك الخالق سبحانه هو أهل ليكون محبوبا، لأجل جماله وكماله وإحسانه اكثر من أي أحد كان، حتى ان ما في قلب الإنسان المؤمن من أنواع المحبة ودرجاتها للذين يرتبط بهم بعلاقات معينة، ولاسيما ما في قلبه من حب تجاه حياته وبقائه، وتجاه وجوده ودنياه، وتجاه نفسه والموجودات بأسرها، إنما هي ترشحات من تلك الاستعدادات للمحبة الإلهية. بل حتى أشكال الاحساسات العميقة – عند الإنسان– ما هي الا تحولات لذلك الاستعداد، وما هي إلاّ رشحاته التي اتخذت أشكالا مختلفة."[18]

فالمتحابان من البشر إذا كانا صادقين في حبهما، مخلصين في ودّهما، فتح أحدهما للآخر أعماق روحه، وكشف أحدهما للآخر عن سريرته، وأودع أحدهما الآخر خويصة نفسه، وأَمِنَهُ على حبّات فؤاده. ولا مشاحة في المثال – ولله المثل الأعلى والأقدس – فإنّ ربَّ العزة إذا رأى من عبده المؤمن صدق المحبة، وخلوص النيّة، وتذلل العبودية، والتمرغ بتراب الأعتاب، والوقوف بالمسكنة طويلاً على الباب، فإنه تعالى يتوجه إليه، ويلتفت نحوه، وعلى عرش قلبه تتنزل أنواره، وفي سماء روحه تسطع أسماؤه. فيمتلئ قلبه بالمعارف، وتفيض روحه بالعلوم، فيلحق بالأبرار، وينزل ديوان المقربين، كلُّ ذلك مع التزام الأدب، ومعرفة الحدّ، وعدم مجاوزة القَدرْ، والعلم بأن شأنه مع هذه التجليات شأنَ " رجل يمسك مرآة تجاه الشمس، فالمرآة تلتقط – حسب سعتها – نوراً وضياء يحمل الألوان السبعة في الشمس. فيكون الرجل ذا علاقة مع الشمس بنسبة تلك المرآة، ويمكنه أن يستفيد منها فيما إذا وجهها إلى غرفته المظلمة، أو إلى مشتله الخاص الصغير المسقف، بيد أن استفادته من الضوء تنحصر بمقدار قابلية المرآة على ما تعكسه من نور الشمس وليست بمقدار عِظَمَ الشمس."[19]

ثم يمضي النورسي متحدثاً عن أنوار الإلهامات، فيقول:" إن ابسطها وأكثرها جزئية هي إلهام الحيوانات، ثم إلهام عوام الناس، ثم إلهام عوام الملائكة، ثم إلهام الأولياء، ثم إلهام كبار الملائكة.

---

18 اللمعات ص90-92

19 الكلمات ص146

ومن هذا السر نرى أن ولياً يقول: "حدّثني قلبي عن ربي" أي: بهاتف قلبه. ومن دون وساطة مَلَك، فهو لا يقول: حدّثني رب العالمين. أو نراه يقول: إن قلبي عرشٌ ومرآة عاكسة لتجليات ربي. ولا يقول: عرش رب العالمين؛ لأنه يمكن أن ينال حظاً من الخطاب الرباني وفق استعداداته وحسب درجة قابلياته وبنسبة رفع ما يقارب سبعين ألف حجاب." [20]

فرغم أن الإنسان مخلوق فانٍ إلاّ أنه يحمل في فطرته بذرةً للخلود وينطوي على نازع قوي ينزع به نحو البقاء والأبد، فالخالق جلَّ وعلا خلق هذا الإنسان لنفسه، وصنعه على عينه، وأوجده ليعرفه، ومنحه شرفَ أن يكون أجمعَ مرآة تعكس أنوار أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأودعه بعضاً من أسمائه وصفاته بشكل نسبي ومحدود لكي يقيس ما عنده من نسبيات هذه الصفات ومحدودياتها على مطلقاتها التي لا يحدها حدّ عنده تعالى.

ومن أجل هذه المهمة المقدسة – مهمة كون الإنسان مرآة عاكسة لتجليات أسمائه تعالى وصفاته – بعث الله الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأنزل الكتب، ليّذكّروا الإنسان إذا ما نسي بأصل رسالته، والغاية من خلقه، والمغزى من وجوده، وليحثوه على تعهد نفسه – باعتبارها المرآتية – بالصقالة، وبدفع الصدأ عنها وإزالة الكدورة منها، وأن يحافظ عليها نقيةً من كل شائبة، طاهرة من كل دنس، وأن يزكيها ويرقي بها ليسلمها لخالقها – إذا جاء الأجل –كما أودعه إياها أولَ خلقهِ طاهرةً مطهرةً، وادعةً مطمئنةً.

فالإنسان الذي قُلِّدَ هذا الشرف – شرف كونه مرآة عاكسة لتجليات ربّه – هو المقصود بالحديث الشريف:" (إن الله خلق آدمَ على صورة الرحمن) [21] أو كما قال ﷺ. يقول النورسي:

" فسَّرَ قسمٌ من أهل الطرق الصوفية هذا الحديث الشريف تفسيراً عجيباً لا يليق بالعقائد الإيمانية، ولا ينسجم معها. بل بلغ ببعضٍ من أهل العشق ان نظروا إلى السيماء المعنوي للإنسان نظرتهم إلى صورة الرحمن! ولما كان في اغلب أهل العشق حالة استغراقية ذاهلة والتباس في الأمور، فلربما يُعذَرون في تلقّياتهم المخالفة للحقيقة. إلاّ أن أهل الصحو، وأهل الوعي والرشاد يرفضون رفضاً باتاً تلك المعاني المنافية لأسس عقائد الإيمان، ولا يقبلونها قطعاً. ولو رضي بها أحدٌ فقد سقط في خطأ وجانَبَ الصواب.

نعم، إن الذي يدبر أمور الكون ويهيمن على شؤونه بسهولة ويسر كإدارة قصر أو بيت.. والذي يحرك النجوم وأجرام السماء كالذرات بمنتهى الحكمة والسهولة.. والذي تنقاد إليه الذرات وتأتمر بأمره وتخضع لحكمه..

نعم، إن الذي يفعل هذا كله هو الله القدوس سبحانه.. فكما انه منزّه ومقدّس عن الشرك؛ فلا شريكَ له، ولا نظيرَ، ولا ضدّ ولا ندّ، فليس له قطعاً مثيلٌ ولا مثالٌ ولا شبيهٌ ولا صورةٌ أيضاً، وذلك بنص الآية الكريمة (**ليس كَمِثْلِه شيءٌ وهو السَّميعُ البَصيرُ**) (الشورى: 11) إلاّ أن شؤونه

---

20 الكلمات ص 147–148

21 (خلق الله عز وجل آدم على صورته..) حديث صحيح أخرجه البخاري برقم 6227 ومسلم برقم 2841 واحمد 315/2 وابن خزيمة في التوحيد ص29. أما حديث (إن الله خلق آدم على صورة الرحمن) فقد عزاه الحافظ في الفتح 183/5 لابن أبى عاصم في السنة والطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الحافظ بإسناد رجاله ثقات.

الحكيمة وصفاته الجليلة وأسماءه الحسنى يُنظر إليها بمنظار التمثيل والمِثَل حسب مضمون الآية الكريمة: (**ولَه المَثَلُ الأعلى في السّموات والأرض وهو العزيزُ الحكيمُ**) (الروم: 27). أي ان المِثَل والتمثيل واردٌ في النظر إلى شؤونه الحكيمة سبحانه.

ولهذا الحديث الشريف مقاصد جليلة كثيرة، منها: أن الإنسان مخلوق على صورة تُظهر تجلي اسم الله "الرحمن" إظهاراً تاماً.

نعم، لقد بينا في الأسرار السابقة انه مثلما يتجلى اسمُ "الرحمن" من شعاعات مظاهر ألف اسمٍ واسم من الأسماء الحسنى على وجه الكون، ومثلما يُعْرَض اسم "الرحمن" بتجليات لا تحد للربوبية المطلقة على سيماء الأرض، كذلك يُظهِر سبحانه التجلي الأتم لذلك الاسم "الرحمن" في الصورة الجامعة للإنسان، يُظهِره بمقياس مصغر بمِثلِ ما يُظهره في سيماء الأرض وسيماء الكون بمقياس أوسع واكبر.

وفي الحديث الشريف إشارة كذلك إلى أن في الإنسان والأحياء من المظاهر الدالة على "الرحمن الرحيم" ما هو بمثابة مرايا عاكسة لتجلياته سبحانه، فدلالة الإنسان عليه سبحانه ظاهرة قاطعة جلية، تشبه في قطعيتها وجلائها دلالة المرآة الساطعة بصورة الشمس وانعكاسها على الشمس نفسها. فكما يمكن ان يقال لتلك المرآة: إنها الشمس، إشارةً إلى مدى سطوعها ووضوح دلالتها عليها، كذلك يصح أن يقال – وقد قيل في الحديث – أن في الإنسان صورة "الرحمن"، إشارة إلى وضوح دلالته على اسم "الرحمن" وكمال مناسبته معه ووثوق علاقته به. هذا وان المعتدلين من أهل وحدة الوجود قد قالوا: "لا موجود إلاّ هو" بناء على هذا السر من وضوح الدلالة، وعنواناً على كمال المناسبة." [22]

وفي مكان آخر يقول "النورسي" عن الإنسان ما يأتي:

"مع أن الإنسان فانٍ إلاّ أنه مخلوق للبقاء. خَلَقه البارى الكريم بمثابة مرآة عاكسة لتجلياته الباقية، وكلّفه بالقيام بمهمات تثمر ثمارا باقيةً، وصوّره على أحسن صورة حتى أصبحت صورته مدار نقوش تجليات أسمائه الحسنى الباقية، لذا فسعادة هذا الإنسان ووظيفته الأساس إنما هي: التوجه الى ذلك الباقي بكامل جهوده وجوارحه وبجميع استعداداته الفطرية، سائراً قُدماً في سبيل مرضاته، متمسكا بأسمائه الحسنى، مردداً بجميع لطائفه – من قلب وروح وعقل – ما يردده لسانه: يا باقى أنت الباقى:

هو الباقي، هو الأزلي الأبدي، هو السرمدي، هو الدائم، هو المطلوب، هو المحبوب، هو المقصود، هو المعبود." [23]

- 11 -

في "التوطئة" أو "المدخل" إلى "المثنوي العربي النوري": كتبتُ أقول:

" والتوحيد الخالص من شوائب الشرك، والذي يشكل لبَّ الإيمان، وجوهر عقيدة الإسلام، هو في "المثنوي" ليس أمراً تقريرياً، ولا معنىً تلقينياً، ولا عقيدة تقليدية، ولا كلاماً محفوظاً مردداً يردده

22 اللمعات ص153-154

23 اللمعات ص27

المسلم بلسان جاف، وقلب بارد، ووعي ذاهل، كما هو مشاهد اليوم لدى الكثير من المسلمين.. فلا غرو إذا ما عجزت "كلمة التوحيد" اليوم – وقد خالطها هذا القصور المعيب – أن تخرق أبواب الروح، وتلج إلى أعماق الفؤاد، لتطلق قوى المسلم، وتفجر طاقات كيانه الروحي الذي أصابه الضمور وغدا عاجزاً عن ممارسة أي نشاط يمكن أن يزيد في نموه، ويقوي فيه بصيرة الكشف الذكي عن "علوم التوحيد" العظيمة في مظانها الأصلية من نفس الكون والإنسان.

فالتوحيد الذي يدعونا إليه "المثنوي" ليس تقريرياً، ولا تلقينياً، ولا تقليدياً، ولا ترديدياً، بل استكشافياً.. فيه ما في الاستكشاف من متعة ومغامرة ومعاناة، فهو يأخذنا – عبر خواطره – في جولة استكشافية في أغوار النفس الإنسانية، ويدور بنا في أنسجة الروح والفكر والضمير، ثم يزيح التراب عن ذاكرة الكون المؤودة تحت ركام علوم العصر، ويستنطقها لتحدثنا عن بصمات "التوحيد"، وتدلنا على آيات الإله الواحد الذي لا يقبل الشريك.. ولا يتركنا إلا ونحن قد اكتشفنا "التوحيد" والتقيناه في أشد الأشياء الكونية والنفسية بداهةً، فينبثق في صميم أفئدتنا انبثاقاً، وينغرس بشكل عفوي في أعماق أرواحنا وضمائرنا، فيهز هذا التوحيد الاستكشافي أعماق النفس، ويفعم الذهن بطاقات الذكاء، ويشدُّ في الوجدان أجهزة التلقي عن الكون والحياة، فيستمر المسلم كشافاً رائداً لأعمق الحقائق – في الكون والإنسان – في ديمومة لا تتوقف حتى تتوقف حياته.. فيزيد فهماً، ويتسع وعياً ويخصب وجوداً وحياةً.

فكذلك (ولله المثل الأعلى) فان الصفات الجمالية والكمالية وصفات القدرة التي يدور غالب أفكار "المثنوي" وخواطره حولها، هذه الصفات التي وصف الله – جلّ شأنه – بها نفسه ومنها: (الخالق، البارئ، المصور، الرحمن، الرحيم، اللطيف، الودود، الرزاق، الكريم، القادر، العليم..) إلى آخر هذه الصفات لا بد لها من التجلي بمعانيها الجمالية والكمالية في الخلق والإيجاد، وان ترتسم صورها في مرآة العالم والوجود، وتنسكب بمحاسنها وألوانها على صور الكائنات والموجودات، ليراها مَنْ وصف نفسه بـ: "أحسن الخالقين"، وليريها للإنسان في خفايا نفسه، وفيما يحيط به من موجودات. فيرى – هذا الإنسان – ويتأمل ويعتبر، ويشهد ويشغف، ويعجب ويشدَه، ثم لا يقف عند هذا بل يمر سريعاً من الرسم إلى الرّسام، ومن النقش إلى النقاش، ومن الظل إلى الأصل، وبذلك – أي بهذا الانتقال السريع – يصبح الإنسان جديراً بالفهم عن الله سبحانه وتعالى، الذي قدّر ان يكون محط عنايته، وخليفته في أرضه.. وهي بلا شك ستبلغ – أي هذه الصفات الجمالية والكمالية – مداها الأعظم والأشمل والأوفى من الجمال والكمال في حياة الإنسان الأخرى، وعمره الثاني في كنف الرحمن وفي جنته التي هي أروع لوحاته جمالاً وحسناً وكمالاً وقدرة.." [24]

- 12 -

والمرايا العاكسة التي تعكس كلٌّ واحدة منها – بحسب حجمها وعلى قدر صقالتها وشدة نقائها– بعضاً من أنوار تجليات الأسماء الإلهية الحسنى. فأن هذه المرايا إذا ما نُظِرَ إليها بمنظار "التوحيد" عُرِفَ أنّ مصدر نورها واحد، ومنبعه واحد، فيجتمع بهذا النظر شتاتها، وتتوحد اجزاؤها، ويلتحم بعضها ببعض، وتصير– بسّر التوحيد– مرآة واحدة كبرى تعكس وحدة النور، وأحدية المنَّور.

---

24 المثنوي العربي النوري ص 15–18

فالوحدة والتوحيد سنّة كونية تدفع بالأشياء من الجزئية الى الكلية، ومن الشتيت المتفرق إلى الواحد المتجمع، وتسعى الى رتقِ ما يتفتّق، وتركيب ما يتفكّك، حتى أن القرآن الكريم يشير إلى هذه السنة الكونية الإلهية فيقول: (**ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفسٍ واحدة**) (لقمان:28) ويقول: (.. **مَنْ قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومَنْ أحياها فكأنما أحياء الناس جميعاً**) (المائدة: 32). فالبشرية بأجيالها المتعاقبة منذ آدم عليه السلام والى أن تقوم الساعة مختزلة في أي فرد من أفرادها، فقتل هذا الفرد من غير وجه حق كأنه قتل للبشرية بأسرها، وإحياؤه أي مساعدته على حفظ حياته كأنه إحياء للبشرية كلّها، وهذا الفرد وسرّ كينونته منطوٍ في أصغر خلاياه، كما أنّ أعظم طاقات الكون مخفية في الذرة الواحدة من ذراته. والعلوم– على سعتها– مختزلة اليوم في معادلات وشفرات ورموز حيث يمكن حفظها وخزنها في ذاكرة الحافظات الإلكترونية لكي يتسنى العودة إليها إذا ما دُمِّرتْ الحضارة القائمة لأي سبب من الأسباب ليستأنف الإنسان مسيرة الحضارة من جديد من النقطة التي توقفت عندها.

يتبين لنا من هذا الذي عرضناه آنفاً أن الفطرة التي فطر الله تعالى عليها العالم تقود الجميع بصمت وخفاء نحو الوحدة والتوحد، والانتقال من التعددية إلى الواحدية، ومن الشتات والتفرق الى التجمع والتوحد، وأن واحديته– جلّ شأنه– وأحديته قد تركت بصمتها وختمها على الكون والحياة والإنسان.

وعن مرآة "التوحيد" هذه يحدثنا "النورسي" قائلاً:

" نعم، إن الجمال الإلهي وكماله الذي لايحد، والحسن الرباني ومحاسنه التي لانهاية لها، والبهاء الرحماني وآلاءه التي لا تعد ولا تحصى، والكمال الصمداني وجماله الذي لا منتهى له، لا يشاهد إلاّ في مرآة التوحيد؛ بوساطة التوحيد ونور تجليات الأسماء الإلهية المتمركزة في ملامح الجزئيات الموجودة في أقصى نهايات شجرة الكائنات.

وحيث إن عظمة الكبرياء الإلهي والجلال السبحاني وهيبة الربوبية الصمدانية تتحقق في كلمة التوحيد فقد قال النبي ﷺ: (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلاّ الله) [25].

نعم، إن ثمرة واحدة، وزهرة واحدة، وضياءً واحداً، كل منها يعكس كالمرآة الصغيرة رزقاً بسيطاً، ونعمة جزئية وإحساناً بسيطاً. ولكن بسر التوحيد تتكاتف تلك المرايا الصغيرة مع مثيلاتها مباشرة، ويتصل بعضها بالبعض الآخر، حتى يصبح ذلك النوع مرآة واسعة كبيرة جداً تعكس ضرباً من جمال إلهي يتجلى تجلياً خاصاً بذلك النوع. فيُظهر سر التوحيد حسناً سرمدياً باقياً من خلال ذلك

---

25 جزء من حديث: (افضل الدعاء يوم عرفة وافضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا اله إلاّ الله وحده لا شريك له) رواه مالك عن طلحة بن عبيد الله بن كرير مرسلا، وأخرجه الترمذي وحسنه عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ: خير الدعاء يوم عرفة وزاد: له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، ورواه البيهقي عن أبى هريرة بلفظ: افضل الدعاء دعاء يوم عرفة وافضل قولي وقول الأنبياء قبلي لا اله إلا الله.. (كشف الخفاء 153/1) وأخرجه الأصفهاني في الترغيب (1/331 المدينة) بلفظ مقارب عن عمرو عن المطلب كما في الصحيحة 807/4 وقال هذا مرسل حسن الإسناد وحسنه لشواهده. وانظر موطأ الإمام مالك برقم 500 و 955 وصحيح الجامع الصغير وزيادته برقم 1113.

الجمال الفاني الموقت. بمعنى أن ذلك الشيء الجزئي يتحول بسر التوحيد إلى مرآة الجمال الإلهي" [26]

- 13 -

لا يليق بالربوبية المطلقة إلاّ عبودية مطلقة، فعظمة الربوبية لكي تتجّلى بأسمى ما يكون التجلي، وتتراءى للخلائق بأوضح ما تكون الرؤية، لا بد لها أن تلتقي عبودية عظيمة، فيها من العظمة والسكينة والكمال والاستغناء بالنفس ما يؤهلها لاستقبال تجليات الربوبية وعكسها على العالمين. فالعبودية المطلقة في شخصية محمد ﷺ هي اللائقة لتكون مرآةً للربوبية المطلقة.

فبين عظمة الربوبية وعظمة العبدية صلة ونسب، بعيدان موغلان في قديم الخلاّقية الأولى حين تجلّى الربُّ سبحانه وتعالى على أرواح عبيده في ملكوت التجريد وسألهم: (**ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى**) ففي إقرارهم بمربوبيتهم للربّ المقدّس المعبود، نالتْ العبودية – منذ ذلك الوقت – بارقة من بوارق الجلال، وقبستْ قبسةً من عظمة أنوار عظمة صاحب العظمة والكبرياء، فهذه العبودية ليست محقاً للذات. ولا سحقاً للروح، بل توكيداً للذات، وإعظاماً للروح، لأنهما مَدارُ المسَاءلةِ والتكليف، سواء في ملكوت التجريد، أو في عالم التجسيد. [27]

وهنا يكمن سرُّ اختياره عليه الصلاة والسلام لنبوّة العبودية، على نبّوة الملوكية عندما خُيّرَ بينهما، لما في العبودية من شرف الكرامة عند الله تعالى، ولما فيها من أسرار القرب من الربّ المعبود، ولأنه عليه الصلاة والسلام جرّبَ وذاق وعَرَفَ قال: (أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء) [28] أو كما قال. ففي السجود يتلاشى الوجود، ويذوب المعمور، ولا يبقى سوى ربٍّ ومربوبٍ، فيتردد في الروح صدى ذلك النداء الإلهي البعيد ليذكرها بالعهد الذي قَطَعَتْهُ على نفسها. وبالميثاق الذي أقرّت به. والتزمت به وهي بعدُ في ملكوت التجريد. و"النورسي" يؤكد هذا المعنى حيث يقول:

" كما لا يمكن وجود الشمس بلا نشر ضياء..كذلك لا يمكن جمال في نهاية الكمال بلا تبارز وبلا تعرُّف بواسطة رسول معرِّف.." أي لا يمكن أنْ يبقى جمال هو في نهاية الكمال مخفياً دون ظهور وتعريف، ولا يتمُّ ذلك إلاّ بواسطة رسول يُعَرّفُهُ.. ويقول كذلك:" ولا يمكن سلطنة ربوبية عامة، بلا عبودية كلية، بإعلان وحدانيته وصمديته في طبقات الكثرة بواسطة مبعوث ذي الجناحين.." أي: إن عظمة الربوبية لابد أن تقابل بعبودية كلية تليق بها، ولا يقوم بمثل هذه العبودية إلاّ مبعوث يملك الرسالة والولاية معاً، فيعلن الوحدانية والصمدانية على الخلق أجمعين..

---

26 الشعاعات ص 8-11

27 يقول النورسي في تفسير قوله تعالى: (**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ**) (البقرة: 26): فلأن النقض لغةً تفريق خيوط الحبل وتمزيقها إشارة إلى أسلوب عال،كأن عهده تعالى حبل نوراني فتل بالحكمة والعناية والمشيئة فامتد من الأزل إلى أن اتصل بالأبد. فتجلى في الكائنات بصورة النظام العمومي وأرسلت تلك السلسلة سلاسلها إلى الأنواع وامتدّ أَعْجُبُها إلى نوع البشر فأورثت وأثمرت في روح البشر بذور استعدادات وقابليات تسقى وتتزاهر بالجزء الاختياريّ المعدَّل بالأمر التشريعيّ، أي الدلائل النقلية. فوفاء العهد صرف الاستعدادات فيما وضعت له؛ ونقض العهد خلافه وتفريقه ". إشارات الإعجاز – ص: 212

28 أخرجه مسلم برقم 482 وأبو داود برقم 875 والنسائي 226/2 عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ويقول :" ولا يمكن حُسنٌ لانهاية له، بلا طلبٍ ذي الحسن، ومحبته لمشاهدة محاسن جماله ولطائف حسنه في مرآة، وبلا إرادته لإشهاد أنظار المستحسنين عليه وإراءته لهم بواسطة عبد حبيب يتحبب إليه، ورسول يحببه إلى الناس."[29] أي : إن لم يطلب صاحب حُسن إظهار حسنه، وليست هناك مرآة تعكس ذلك الحسن، ولم يقم أحدٌ بتعريفه، فسيبقى ذلك الحسن مخفياً، أي لابد من رسول يعكس بعبوديته الكاملة – كالمرآة – محاسن ذلك الجمال ويبينه برسالته للخلق أجمعين..

فكلما عَظُمَتْ عبودية العبد، عظمت معها روحه، وسَمَتْ نفسه، ورهف وجدانه، وثَقُفَ عقله، وَطَهُرَ "أناهُ" من نوازعه، ونفض عن نفسه من الزوائد والشوائب ما لا صلة له بجوهر روحه، وأصل وجوده، فإذا ارتقى العبد في عبوديته هذا الارتقاء أحبّه الربّ المعبود، وإذا أحبّه، أحبّه الكون كله، ووالته الموجودات، وتعاطفت معه الخلائق، وصارت روحه مرآةً كبرى تعكس من صور تجليات محبّة ربّه ما تعكس، وَغَدا طاقةً مؤثرةً في الأشياء من حوله، فإذا نظر، نظرَ بعين الله، وإذا سمع، سمع بسمع الله، وإذا بطش، بطش بيد الله، وإذا أراد أرادَ الله معه، وإذا أعرضَ، أعرضَ معه، وإذا عاداه أحد قَصَمَهُ. فأيّ جلال أعظم من هذا الجلال الذي تُسْبغُهُ العبوديةُ على صاحبها، وأيّ جمال ترفل به روحه يمكن أن يضاهيه جمال، فَلمسة من لمساته تبعث الحياة في الروح الثقيلة، وكلمة من كلماته منظار نبصر من خلاله صميم حالنا الروحي، وقلبه الجائش كالتنور يفور ويتأجج بأعظم المعارف، والحقيقة عنده حية لا تموت لأنها تستمدّ الحياة من الحي الذي لا يموت. فهو الحقّ من حيثما جئته، وهو الصدق من حيثما قصدته، الآذان جائعة إلى كلامه. والقلوب ظمأى إلى فيوضات فؤاده.

ومعلوم أنّ كُلَّ ما ينبع عن الفطرة فهو جميل، فكل جميل مدين بجماله إلى أصل فطرته التي فُطِرَ عليها، وخُلِقَ من أجلها، وأية خطوة من الجميل في الابتعاد عمّا فُطِرَ عليه يفقده شيئاً قليلاً أو كثيراً من جماله، وعلى قدر ما يخطوه من خطوات في الاتجاه المعاكس، ينقص من جماله، ويقبح من صورته.

والقبح في الشيء إنما هو حصيلة ما يعلق به من زوائد غريبة مقطوعة الصلة بفطرته، فتعوقه عن ممارسة وظيفته الفطرية التي خلق لها، فيفقد معنى خلقه، ومغزى وجوده. فالعبودية لله تعالى كما هي جلال فهي كذلك جمال، لأنها فطرة الله التي فطر عليها البشر: (**وما خلقتُ الجِنَّ والأنسَ إلاَّ ليعبدون**) أولاً، ولأنها – ثانياً – استعلاء على كافة العبوديات الانحرافية الهابطة، ابتداءً من عبادة النفس والعقل والهوى وانتهاءً بعبادة الشمس والقمر والشجر والحجر، الى غير ذلك من العبوديات المنحرفة عن الأصل الفطري الذي فُطِرَ عليه الإنسان. والتي كانت – أي هذه العبوديات – وما زالت أعشاش الآم وأحزان، وبيادر للأوجاع يقتات عليها الوثنيون في كل مكان.

وإلى هذا الجلال والجمال يشير "النورسي" قائلاً:

" اعلم! إن اكثر مظاهر الجلال تجلي الأسماء على الكل والكليات والأنواع والجماعات. والجود المطلق في النوع من تجلي الجلال. وان أغلب مرايا الجمال المتجلي، نقوشُ جزئيات الموجودات، وجمال أشخاصها مع تزايد الحسن، وجلاء المرآتية بتلاحق الأمثال في تكثير الأفراد، والإتقان

29 المثنوي العربي النوري ص87

والانتظام الأجمل في شخصٍ شخص من تجلي الجمال.. وكذا يظهر الجلال من تجلي الواحدية ؛ ويظهر الجمال من تجلي الأحدية. وقد يتجلى الجمال من الجلال كما يتجلى الجلال من الجمال.. فما اجمل الجلالَ في عين الجمال، وما اجمل الجمال في عين الجلال!." [30]

.14.

معرفة الله تعالى هي الغاية الأساسية من خلق الإنسان. والهدف الأسنى من استخلافه على كوكب الأرض، ومن أجل هذه الغاية المقدّسة فَطَرَهُ ربُّ العالمين على حب المعرفة، وزوده بما يَحْفِزُهُ إليها، ويدفعه نحوها من لطائف الحدس والحسّ والشعور والخيال، ومن فوقها كلّها ملكة العقل والإدراك، لكي يسعى لامتلاكها والارتقاء بنفسه إليها.

فمهمة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما هي الأخذ بيد الإنسان ومساعدته للنهوض بكيانه المعرفي وإثرائه بالمزيد مما يتنزل به الوحي عليهم من معارف الغيب، فكلما عَمُقَتْ واتّسَعتْ معرفة الإنسان بخالقه زاد حبه له، واشتّدت رغبته بلقائه، وصار اكثر استعداداً على اختراق تلك البرهة الزمنية التي تفصله عنه وتحجبه عن لقائه بنجاح وسلام حين يحين أجلها وتدقُّ ساعتها. وبعض الحكماء يدعون إلى معرفة "النفس" أولاً. لأن معرفة النفس عندهم تفضي عاجلاً أو آجلاً إلى معرفة الله. فمعرفتها – أي النفس – "أمُّ الحكمة، واصل الفضائل، وعليها تتوقف دقائق الحكمة، ورقائق المتألهين، كما جاء في الوحي القديم: "اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربَّك" وفي كلام النبي ﷺ: "مَنْ عَرَفَ نفسه فقد عرف ربّه، وأعرفكم بنفسهِ أعرفكم بربّه" وفي كلام "أفلاطون" : "مَنْ عرف ذاته تألَّهَ" وفي كلام "أرسطوطاليس": " معرفة النفس معينة في كل حقٍّ معونةً كثيرةً" . [31]

وفي القرآن الكريم: (**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**) فالنّفْسُ كونٌ عظيم واسع عميق الغور. يحيا بين جنبينا، يضاهي في سَعَةِ سماواته وعظيم شموسه وأقماره وكواكبه، وعجائبه وغرائبه، الكون الذي يظلّنا ويحيط بنا، ورواد فضاءات النفس كرواد فضاءات الكون، اكثر فهماً وإدراكاً لأسرار الربوبية فيما يردون من آفاق ويقتحمون من مجاهيل. فلا عجب إذا ما حازت مقولة: "معرفة النفس" موافقة الأنبياء والحكماء على حد سواء فالله تعالى "خلق الخلق ليشاهدَ في مرايا أطوارها جلوات أنوار جماله وجلاله وكماله" كما يقول "النورسي" ويقول كذلك: "وأما ذو الكمال الذاتي والجمال الحقيقي، المجرد، السرمدي المحبوب لذاته بذاته، الذي له المثل الأعلى فقد أخبرنا على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام. "إنّه خلقَ الخلقَ ليعرف" [32] أي صور مرايا ليشاهد فيها تجليات جماله المحبوب لذاته بذاته".

.15.

30 المثنوي العربي النوري ص 344–345

31 السهر وردي / حكمة الإشراق / هامش القسم الثاني / المقالة الأولى / ص 114

32 وهذا مقارب بالمعنى ما ورد: (كنت كنزاً لا أُعرف فأحببتُ أن أعرف فخلقت خلقاً فبي عرفوني) لا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف إلا أنّ علي القاري قال: ولكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى: **(وما خلقت الجنّ والأنسَ إلاّ ليعبدون)** أي ليعرفوني كما فسره ابن عباس رضي الله عنهما. (كشف الخفاء 132/2) .

يصعب التعاطي مع "الذوقيات" عموماً بوسائل العلم وبقواعد المنطق، بل تؤخذ "الذوقيات" كما هي دون مداخلات لغرض البيان أو التفسير. وقد باءت المداخلات العلمية والعقلية مع "الذوقيات" بالفشل في كل مرة، فمداخلة العقل أو العلم لتفسير ظاهرة ذوقية معينة قد يفسدها، أو على الأقل يفرغها من محتواها الذوقي والجمالي، فالذوقيات نتاج مؤثرات جمالية، والجمال إذا فُسِرَ فَسَد، والذوق إذا عُقِلَ فَلَت، ومن هنا نفهم دواعي الخلاف التقليدي طويل الأمد بين الفقهاء ورجال العلم من جهة، ورجال التصوف من جهة أخرى.

فذوقيات المتصوفة إنما هي نُمُوٌّ مُفْرِطٌ في الوظائف الوجدانية والذوقية يقابله ضمور يكاد يكون مفرطاً كذلك في سائر الوظائف البشرية الأخرى، وقد ينجم عن هذا الإفراط والتفريط عند البعض منهم ما اصطلح على تسميته بالشطحات.

فالتصوف ذاتي وفردي، يتلون بلون التجربة الذاتية التي يخوض غمارها هذا المتصوف أو ذاك. والذاتيات – لكونها ذاتيات – فأنها تندُّ عن أي ضابط علمي، فلا يصير الشيء علماً منضبطاً ضمن قواعد وأصول ما لم يعمَّ، أي يكون أثره وتأثيره واحداً في عموم المتعاطين معه. وليس التصوف هكذا، لذا فهو سيظلُّ عِلْماً فردياً ذاتياً له خصوصيته عند صاحبه لا يشاركه فيها غيره.

كما أن امتياز "الصوفية" في مجال الروحيات والذوقيات لا يعني بالضرورة امتيازهم في المجالات الإنسانية الأخرى والى هذا يعود سبب ما أشْتهر عن بعضهم من تصرفات طفولية، ومن سذاجات قد تبلغ حدَّ البلاهة عند بعض مَنْ يسمونهم بالجذبة أو المجذوبين رغم علّو كعبهم في مسائل الكشفيات والذوقيات.

ودعوة كبارهم إلى ضرورة وزن ما يقع لهم من أمور ذوقية أو كشفية بميزان الشرع الحنيف إنما هو حرصهم على عدم الوقوع في مخالفات تجرّ – عند عدم الانتباه – إلى مخاطر عقيدية قد تخدش أصلاً من أصول العقيدة، أو تخالف قاعدة من قواعدها.

ولم يختلف الناس في أمر من أمور "التصوف" اختلافهم في مسألة "وحدة الوجود فمنهم مَنْ يقدح بها ويسفهها إلى حد تكفير مَنْ يعتقدها أو يقول بها، ومنهم مَنْ يرى أنها غاية الغايات في المعرفة والتوحيد. وقد سئل النورسي عنها وكما يأتي:

"**سؤال**: ما ترى في "وحدة الوجود"؟

الجواب: انه استغراق في التوحيد، وتوحيد ذوقي لا ينحصر في نظر العقل والفكر؛ إذ إن شدة الاستغراق في التوحيد – بعد توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية – يُفضي إلى وحدة القدرة، أي: لا مؤثر في الكون إلاّ الله. ثم يؤدي هذا إلى وحدة الإدارة، وهذا يسوق إلى "وحدة الشهود" ثم إلى "وحدة الوجود". ومن بعدها رؤية وجود واحد ثم إلى رؤية موجود واحد... فشطحات علماء الصوفية التي هي من قبيل المتشابهات لا تقام دليلاً على هذا المذهب. فالذي لم تتخلص روحهُ من تأثير الأسباب ولم تتجرد من دائرتها إذا ما تكلم عن وحدة الوجود يتجاوز حدّه. والذين يتكلمون به إنما حصروا نظرهم في "واجب الوجود" حصراً بحيث تجرّدوا عن الممكنات فاصبحوا لا يرون إلاّ وجوداً واحداً بل موجوداً واحداً.. نعم، ان رؤية النتيجة ضمن الدليل، أي رؤية الصانع الجليل ضمن موجودات العالم شئ ذوقي ولا يمكن بلوغها إلاّ باستغراق ذوقي. فإدراك حقيقة جريان

التجليات الإلهية في جداول الأكوان، وسريان الفيوضات الإلهية في ملكوتية الأشياء، ورؤية تجلي الأسماء والصفات في مرايا الموجودات.. أقول: إن إدراك هذه الحقائق أمرٌ ذوقي. إلاّ أن أصحاب مذهب وحدة الوجود لضيق الألفاظ عبّروا عن هذه الحقيقة بالألوهية السارية والحياة السارية في الموجودات، وحينما حصر أهل الفكر والعقل هذه الحقائق الذوقية في مقاييس فكرية وعقلية جعلوها مصدر كثير من الأوهام والأفكار الباطلة.

ثم إن ما لدى الفلاسفة الماديين ومن وهنت عقيدتهم من المفكرين من مذهب "وحدة الوجود" وما لدى الأولياء منه بوناً شاسعاً وفروقاً كثيرة بل انهما متضادان ونقيضان. فهناك خمسة فروق بينهما:

الفرق الأول: إن علماء الصوفية قد حصروا نظرهم في "واجب الوجود" واستغرقوا في التأمل فيه بكل قواهم حتى أنكروا وجود الكائنات ولم يعودوا يرون في الوجود إلاّ هو. أما الآخرون (الفلاسفة الماديون وضعفاء الإيمان) فقد صرفوا كل تفكيرهم ونظرهم في المادة حتى ابتعدوا عن أدراك الألوهية بل أوْلَوا المادة أهمية عظيمة حتى جعلتهم لا يرون من الوجود إلاّ المادة بل تمادوا في الضلالة بحيث مزجوا الألوهية في المادة بل استغنوا عنها لشدة حصرهم النظر في الكائنات.

الفرق الثاني: إن ما لدى الصوفية من وحدة الوجود تتضمن وحدة الشهود في حين ما لدى الآخرين يتضمن وحدة الموجود.

الفرق الثالث: إن مسلك الأولياء مسلك ذوقي بينما مسلك الآخرين مسلك عقلي.

الفرق الرابع: يحصر الأولياء نظرهم في الحق تعالى ثم ينظرون نظراً تبعياً ثانوياً إلى المخلوقات بينما الآخرون يحصرون نظرهم أولاً وبالذات في المخلوقات.

الفرق الخامس: إن الأولياء عبّاد الله ومحبوه بينما الفلاسفة يعبدون أنفسهم وهواهم، فاين الثرى من الثريا.. وأين الضياء الساطع من الظلمة الدامسة.

تنوير:

لو افترض – مثلاً – أن الكرة الأرضية قد تشكلت من قطع زجاجية صغيرة جداً ومختلفة الالوان، فلا شك أن كل قطعة ستستفيض من نور الشمس حسب تركيبها وجرمها ولونها وشكلها.

فهذا الفيض الخيالي ليس الشمس بذاتها ولا ضياؤها بعينه.

فلو نطقت ألوان الأزهار الزاهية المتجددة والتي هي تجليات ضياء الشمس وانعكاسات ألوانه السبعة، لقال كل لون منها:

ان الشمس مثلي. أو إن الشمس تخصّني أنا.

"إن الخيالات التي هي شِباكُ الأولياء إنما هي مرآة عاكسة تعكس الوجوه النيرة في حديقة الله" [33]

ولكن مشرب أهل وحدة الشهود هو: الصحو والتمييز والانتباه، بينما مشرب أهل وحدة الوجود هو: الفناء والسكر. والمشرب الصافي هو مشرب الصحو والتمييز.

(تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته فإنكم لن تقدروا) [34]

---

33 والبيت اصله بالفارسية لجلال الدين الرومي في مثنويه ج1 / 3 .

حقيقة المرء ليس المرء يدركُهـا

فكيف كيفية الجبار ذي القدم

هو الذي أبدع الأشياءَ وأنشأها

فكيف يُدركهُ مستحدثُ النَّسَمِ [35] " [36]

- 16 -

وبعدُ:

كان يمكن أنْ يكون هذا البحث المتواضع ضِعْفي حجمه الذي هو عليه الآن لو رُحْتُ استقصي ما جاء من أمثلة "الصورة والمرآة" في جميع مظانّاتها من مجلدات "رسائل النور" وهذا ما لم أفعله، لأنه لم يكن من هدف هذا البحث أساساً، وإنما كان هدفه عرض نماذج قليلة أساسية ومهمة من هذه الأمثلة التي استعان بها "النورسي" في إلقاء الأضواء على إشكالات روحية يكتنفها شئٌ من الغموض كانت وما زالت مثار تساؤلات مريبة من لدن المعنيين بشؤون "الروح الإنساني" وأوجاعه الارتقائية، وآلامه السلوكية. وأوهامه الماورائية. وبدءاً أسارعُ فأقول:

إنَّ "النورسي" لم يكن هو السبّاق الأول في الاستعانة بِمَثَل "الصورة والمرآة" فيما عالجه من هذه الإشكالات فقد سبقه الى ذلك فلاسفة يونان وحكماؤها الأقدمون من المتألّهين واستعان به "الإشراقيون" من صوفية المسلمين وضربه مثلاً الغزالي والرومي وابن عربي، وجمهرة كثيرة من فلاسفة الصوفية، وصوفية الفلاسفة، وكلُّ واحد من أولئك استعان بالمثل إياه ليلقي مزيداً من الضوء على فكرةٍ من غوامض أفكاره، أو غريبة من غرائب مذهبة، أو دقيقة من دقائق حكمته.

فاستعانة هؤلاء جميعاً بهذا "المثل" وإنْ اختلفتْ أغراضهم وأفكارهم ومذاهبهم – دليل إيَّماَ دليل على ما فيه من جاذبية إغرائية تغري أرباب القلوب خاصة للاستعانة به، وذلك للتشابه الذي يكاد يبلغ حَدَّ التطابق بين القلب الإنساني والمرآة من حيث استيعابية كُلّ منهما لما يقع عليه من صور، ولما يعكسانه على الآخرين منها. وللتشابه في الصدأ الذي يصيب القلب فيحول بينه وبين تلقي الصور والإشراقات والأنوار كما يحول الصدأ في المرآة دون تلقيها للصور والإشراقات والأنوار.

فهذا التشابه بين المرآة والقلب الإنساني هو الذي أعطى "المِثَل" مكانته في كتابات هؤلاء الكبار، فوظفوه في خدمة أفكارهم ومذهبهم على الوجه الذي يريدون.

وقد وظَّفَ "النورسي" المِثَل نفسه للأغراض الآتية:

1. تقريب البعيد والعالي من أفكاره وتجليتها وإلقاء المزيد من الضوء عليها.

2. بيان ما وقع فيه بعض عظماء الصوفية من أوهام وخيالات.

---

34 حديث حسن : أخرجه الطبراني في الأوسط 6456 واللالكائي في السنة 1 / 119 /1-2 والبيهقي في الشعب 1 / 75 (الأحاديث الصحيحة 1788 وله شواهد أخرى حسنة). وانظر المجمع 1 / 81 وحلية الأولياء 6 / 66 – 67 وصحيح الجامع الصغير 2972و 2973

35 ينسب إلى الإمام علي كرّم الله وجهه – ديوان الإمام علي ص 185 – بيروت.

36 المثنوي العربي النوري ص 432-434 وقد خص النورسي اللمعة التاسعة في بيان مزالق وحدة الوجود مفصلا.

3. إبطال التهم الملصقة ببعض كبار أهل التصوف وبيان أسبابها.

4. التوكيد على الالتزام بالكتاب والسنة وبيان أنهما الطريق الوحيدة الموصلة الى الترقيات الروحية والقلبية.

منبعثاً في كُلّ كتاباته الإبداعية ودراساته النقدية من قاعدة أساس في فكره ألا وهي خدمة الإيمان، والدعوة إلى التلقي من القرآن مباشرة دون الحاجة إلى المرور في مسلك أهل التربية والسلوك.

رحم الله "النورسي ورحمنا معه، وأعاننا وأعان كُلّ صاحب قلم على كشف المزيد من أفكاره ووجدانياته التي تزخر بها رسائله "رسائل النور".

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد رسولنا الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.